الاحتفال التكريمي بمناسبة التفرغ في الجامعة
٢٠٠٨

على الرغم من عدم احتفائي كثيراً بمناسبات التكريم، وخجلي الضارب الجذور في بنيتي وتكويني، من المديح الذي يتخطى الواقع، إلاّ أنني ممتنّة للزملاء الذين فكّروا في تكريمي، وللأصدقاء والمحبّين الذين يشاركون في هذا اللقاء. صدقاً، أنا أشعر الآن وكأنني أقبض على الدنيا بكفيّ، أو ما سماه ابني محمد بالامتلاء المعنويّ الأسمى من كلّ الأثمان.

كان صديقي ومعلمي بهاء الدين العاملي يردّد حين تولى مِشيخة الإسلام في إيران: "لو لم يأتِ والدي من بلاد العرب إلى بلاد العجم ولم يختلط بالملوك لكنت من أتقى الناس، وأعبدِهم وأزهدِهم لكنه طاب ثراه أخرجني من تلك البلاد وأقام في هذه الديار، فاختلطتُ بأهل الدنيا... ثم لم يحصل لي من هذا الاختلاط إلا القيلُ والقال والنزاع والجدال..."

وأنا لا أزال أتساءل حتى الآن، كيف وقد كنت هانئةً بين كتبي ودفاتري، أمارس التعليم عشقاً لا مهنةً، أعيش الامتلاء المعنويّ الحقيقي، الأمومةَ الممتدّة من أبنائي الأربعة إلى تلاميذَ يصعب حصر أعدادهم منذ اثنين وأربعين عاماً وحتى اليوم.

في لحظةٍ من الزمان أو في غفلة منه صرتُ مديرةً كانت، فلتةً لم أتمكن على المستوى الشخصي من توقّي شرورها، أدخلتني في نزاع وجدال استمرّا ربع قرن، ولم يكن تكويني الشخصيُّ ولا بنيتي النفسيُّة مهيئان لها، خلقت لنفسي عداواتٍ وانتقادات وعرقلةً، بدلاً من فائض الحبّ الذي يوفّره التلاميذ الذين نعلّم...

ولكنّها الحياة تحملك وترمي بك حيث تريد هي، لا حيث تريد أنت... تتورط في عمل لا يناسب شخصيتَك، ولا ما رُسم لك أصلاً... نجحتُ حيناً وفشلت أحياناً، كان النجاح من خلال العمل الجماعي، عمل الفريق، وكان الفشل حيث لم أنجح طيلة ربع قرن من إتقان أساليب التعامل مع أولي الأمر من صغار الموظّفين وحتى المقامات العليا... فمنظومة القيم التي شكّلت وعيي المبكّر منذ طفولتي الأولى من خلال الأهل والمعلمين القدوةِ والقراءةِ التي عشقتها إلى حدّ الإدمان، تتمحور كلّها حول سلطة العلم وقيمته التي تعلو فوق السلطات والقيم السائدة.

لقد شكّل بدايات هذا الوعي أبَوان، كلاهما لم تُتح له ظروف حياته في قريته النائية حينها، التي كانت مدرستها كُتّابا أن يتعلمُ أكثر من القراءة والكتابة والحساب. الأب الذي كان وحيد أبويه ورفضت أمّه إبعاده عنها، لتلقّي العلم في المدينة ؛ فاضطرّ أن يعيد ما حفظه في الكتّاب حتى الثالثة عشرة، حين أحضره أبوه معه إلى النبطية ليساعده في متجره، وظلت فكرةُ التعلّم حسرةً لديه عوّضها بالقراءة أو ببذل ما يفوق

استطاعته لتعليم أبنائه، أما الأمّ التي كانت تنتمي من جهة أمّها إلى عائلة من العلماء الإجتهاديّين، وحباها الله ذكاء نادراً وسرعةً في التعلّم والاستيعاب، فقد تعلمت دون بنات قريتها القراءة والكتابة والحساب، وحفظت القرآن وبعض نهج البلاغة وأشعارَ الكميت، وعت ما كانت تسمعه من فتاوى أخوالها وطبقّتها عمليًّا في علاقتها بأهل قرية زوجها مفتيةً ومعلمةً وحلاّلة للمشاكل ومشجعة للأقارب على تعليم أبنائهم ورعايتهم في منزلها في النبطية وكأنهم من لحمها ودمها، وكان خالها السيد مهدي إبراهيم يصفها ببيت المتنبي:

ولو أنّ النساء كمثل هذي لفضّلت النساء على الرجال...

كانت تصّنف الأشخاص هذا ذكي وهذا غبي، هذه عاقلة وهذه حرمة...

في هذا الجو ترعرعت، وصادف افتتاح أول مدرسة رسمية في قريتي وأنا في الثالثة أو الرابعة، بعد أن حفيت أقدام أهل القرية ذهاباً وإياباً واستعطافاً لنائب المنطقة، عمّروا المدرسة (الغرفة) بأيديهم وتوسط لهم النائب لدى وزارة التربية فأرسلت لهم معلّما (هكذا كانت تُنشأ المدارس في قرى الجنوب في الخمسينات)، وكان من حسن طالعي للمرّة الثانية أن يكون المعلم السيد محمد باقر إبراهيم ابن خال أمي، لم أكن قد بلغت سنّ الدراسة، لكنه كان يجعلني أحفظ في المنزل ما يريد أن يعلمه للتلاميذ (المتنوعي الأعمار) من آيات قرآنية أو أشعار، ويأخذني معه في اليوم التالي إلى المدرسة فيوقفني على طاولته لألقي ما حفظتُه أمام التلاميذ، لا أزال أذكر عنوان إحدى القصائد "عليا وعصام"...

كنت في الثامنة حين قرّرت العائلة السكن في النبطية من أجل تعليمنا، أدخلونا أنا وأخي محمد الذي يصغرني، مدرسةَ الزهراء التابعة لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، وكانت مدرسة فعلاً وقصراً بالنسبة إلى مدرسة القرية... وجدوني أحفظ أكثر من أقراني، فاختاروني في احتفال لا أذكر مناسبتته لإلقاء قصيدة، حفظت القصيدة، وعلموني الحركات والإيماءات، وأوقفوني على المسرح في الثوب الأبيض الذي تعبت أمي في خياطته وتطريزه، ثم تفتح الستارة، فنرى الطفلة القروية الحضور على مدّ البصر، وفي المقدمة شيخان تعرف بعد عقود أنهما كانا الشيخ أحمد سليمان ضاهر والشيخ أحمد رضا مؤسسا المدرسة وربما كان معهم النائب يوسف بيك الزين أيضاً... تصاب الفتاة بالدهشة والإنبهار وينعقد لسانها، وتجهش بالبكاء، وتُقفَل الستارة على لعنات المديرة (التي ظلّ الخوف منها معششاً في داخلي حتى بعد أن ترافقنا في العمل الإجتماعي في ما بعد...)، وكانت هذه تجربة الإخفاق الصعبة الأولى في حياتي...

في مدرسة الزهراء كان للمعلمات المصريّات اللواتي استُقدِمنَ في العام 1958 سنة السرتيفيكا دورٌ مهمّ في تكوين وعيي المبكر بالعروبة ومصر والثورة وما تلاها، أهدتني معلمة العربية الست نفيسة إحدى روايات جرجي زيدان وأنا في العاشرة، واشترى لي أبي المجموعة من بيروت وبدأت رحلتي مع القراءة...

في ذلك العام جرى تعريب المناهج في جميع مدارس المقاصد، فجاء مَن ينصح أهلي بنقلي إلى المدرسة الرسمية بإدارة السيدة فريحة الحاج علي، كانت المرحلة المتوسطة مستحدثة فيها ولا تزال متعثرة، لو لم يُنقل للتدريس فيها الأستاذ حسن كحيل، علمنا الرياضيات والعلوم وكان المعلم الثالث المؤثّر في مسيرتي، لولاه ولولا الرياضيات والعلوم لما نجحنا وبتفوق في إمتحان الدخول إلى دار المعلمين في صيدا للثغرات في تعلم المواد الأخرى، لا سيما اللغة الفرنسية التي أجزم أن معلوماتنا فيها لم تزد طيلة أربع سنوات عما كنا قد تعلمناه في مدرسة الزهراء، لا تقصيراً من المعلمين، وإنما لعدم وجودهم أحياناً ، ولضعف مستوى التلميذات المترفعات من المدرسة نفسها، والمبدأ التربوي الفاشل يقول إنّ المعلم يجب أن يسير مع التلميذ الأضعف ويأخذ بيده، فينتقي الحافز لدى الأفضل للعمل وللاجتهاد... انحفر هذا الأمر في لا وعيي، لذلك حين تسلمت الإدارة، كان أول ما فعلته أن صنّفت التلميذات بحسب علاماتهن في مباراة الدخول، لاختيار شعبةٍ أو أكثر للمتفوقات، وللأصغر سنًّا، كي لا يتأثّرن سلباً بالأضعف اللواتي لا يردن أو لا يقدرن على مجاراتهنّ... على الرغم من معارضة المسؤولين، لكن بعد بضع سنوات من تطبيق هذا الأمر في ثانوية النبطية صدر قرار وزاريّ بقبول جميع التلاميذ في الثانويات وتصنيفهم بحسب علاماتهم...

كان الدخول إلى دار المعلمين في صيدا معلماً جديداً أو فرصة مهمة لتبلور الشخصية، غنى المناهج المعتمدة في الدار وتنوعها وسعتها، والأهم من كل ذلك، الاختلاط من قرب بأترابٍ وزملاءَ ورفاق من مختلف مدن الجنوب وقراه، ومن مختلف الأديان والمذاهب والتيارات الفكرية والسياسية، وما يتبع ذلك من اضرابات ومظاهرات، كان الدار مصهراً للأفكار والرؤى وتكوّن الوعي بالوطن الجامع الذي كان يمكن له أن يكون أندلساً أخرى قبل أن تتكفيء كلّ مجموعة على نفسها وتغلّق عليها الأبواب... وكانت مكتبةُ الدار الغنيّة مصدراً مهمًّا من مصادر المعرفة...

درّست بعد تخرجي في الدار في مدرسة البنات بإدارة السيدة ليلى نصار، ثم نُقلت مع آخرين في العام 1968 بعد افتتاح دار المعلمين في النبطية إلى المدرسة النموذجية بإدارة الأستاذ حبيب جابر لإعطاء دروس تطبيقية أمام طلاب الدار، وأمام معلّمي اللغة الفرنسية على مسرح الدار...

كنت أعطي الدروس باللغة الفرنسية، وجاءني كتاب تنويه أعتز به من مديرية التعليم الإبتدائي موقّعا باسم مديرها نايف معلوف الذي كان من المتحمسين للتعليم الرسمي ومن الذين عملوا جاهدين لتطويره...

في الوقت نفسه كنت طالبة في الجامعة اللبنانية، يوم كانت في أوج تألقها، ولا أزال أدين لأساتذتها الكبار بالمنهج النقديّ الذي اعتمدته من بعدُ في دراساتي: الشيخ الشهيد الدكتور صبحي الصالح والدكتور محمد المصري أستاذ الأدب الأندلسي الذي أشرف على رسالة الماجستير "المرأة في الأندلس" والدكتور شكري فيصل الأستاذ في جامعة دمشق والدكتور أحمد مكي ثـيكتور الكك ثم أولاً وأخيراً العلامة د. أحمد لواساني الذي أشرف على أطروحة الدكتوراة وقاد خطواتي الأولى المتعثرة في الترجمة من الفارسيّة بالعربيّة.

كان التعليم في ثانوية الصباح منذ العام 1971 وحتى أواخر العام 1984 تاريخ قسمة الثانوية واستلامي إدارة ثانوية البنات من أهم مراحل حياتي، كنا في غرفة الأساتذة يوميًّا وكأننا في مؤتمر دائم يديره المرحوم الأستاذ إسماعيل إبراهيم ويشارك فيه الأساتذة الآخرون رضا سعادة وعلي قانصو ومخول الغزي وخالد فخر الدين ومصطفى رمال ومنصور منصور وزينب مقلّد ومحسن جواد ومصطفى الحاج علي ومن يشاء من الأساتذة الخمسين الآخرين المتعددي المشارب والأهواء والأفكار في مرحلة مخاض فكريٍّ نحو التغيير، والصفوف كانت أكثر غنى والتلاميذ متحفزون دائماً للنقاش والجدال وطرح الأفكار (مما لا أجد له مثيلاً اليوم في الجامعة) وأجزم أنّ الأبحاث التي كان يجريها تلاميذ السنتين الأولى والثانية الثانويتين أفضل بدرجات من أبحاث الطلاب الجامعيين الحاليّين الذين أدرّسهم، كان مسرح الثانوية مركزاً للنشاطات الثقافية الأسبوعية شعراً وسياسة، كانت الثانوية وهي الوحيدة في المنطقة انموذجاً لما يجب أن يكون عليه مشروع تجميع المدارس بدلاً من تشظّيها في كلّ زاوية. لا يمكن أن تكون الثانويات والجامعة مصهراً للمواطنية، وهي بشكلها الحالي .أصبحت الثانويات أشبه بمدارس الأحياء التي لا يخالط فيها التلميذ إلا أقاربه وأبناء عشيرته. ثم أتى تفريع الجامعة ليزيد الطين بلّة ويؤدّي إلى زيادة العزلة وتعميق الإنقسام المعنوي... لا أمل في إعادة الوعي بالمواطنية وفهم الآخر وتشذيب التعصب إلا بإعادة إحياء مشروع تجميع المدارس ولملمتها...

أعقب تشظّي الثانويات وصبغها بالطابع المحلّي العنصري تطبيق المناهج الجديدة التي وضعت لها شعاراً جعلَ التلميذ محورَ العملية التعلميّة وحثَّه على التفكير والإعتماد على الذات، وها مستوى حملة شهادة البريفة الذي نشهده في السنة الاولى الثانوية يثبت أن المناهج لم تحقق هدفها وإنما حققت هدفاً آخر هو تجهيل التلميذ، لا

هي علّمته أن يعتمد على نفسه، ولا لقّنته ما يمكّنه من فكّ الحرف... كانت هذه المناهج المبتسرة دون التحضير والإعداد الكافيين في ظروف غير مؤاتية كمن يُهدي طبقاً من فضة لمن لا طعام في بيته سوى كسرو الخبز، أو حذاءً غاليَ الثمن لمن لا قدم له...

أما البصمة الأساس في تكويني المعرفي، فهي لبهاء الدين العاملي، تعرّفته صدفةً في إيران، التي كان السفر إليها قبل الثورة صدفة أيضاً واخترته موضوعاً لأطروحتي الدكتوريّة قضيت مع كتبه التي لا تحصى سنوات أدرسه وأتعلم منه: عالمَ رياضيات ومهندساً وشاعراً باللغتين العربية والفارسية وفقيها اجتهاديًّا مجدِّدا يضع العقل ركناً من أركان الإجتهاد الأربعة، يعادي التقليد وينتقد الفقهاء القِشريين الذين يعتمدون الظاهر دون الباطن. من خلال دراستي له وإعادة دراستي للقرآن وللتراث بالمجهر الذي أهدانيه، بتّ أرى عيوب التقليد وعيوب أكوام كتب التراث الديني مكبرَّة،وأرى إلى ما يُكتب ويُقال ويمارس بمعيار التوازن بين الظاهر والباطن في كل الأمور وفي جميع المجالات فتعمقت غربتي الداخليّة... عرفت كيف اشتغل السلاطين العثمانيون من ناحية والملوك الصفويون من ناحية أخرى على تجذير الصراع المذهبي الدموي، على الرغم من إبتعاد الفريقين عن الدين... من أجل بهاء الدين إجتهدت لتعميق معرفتي باللغة الفارسية، فانفتحت لي آفاق رحبة في الدخول إلى ثقافة ضاربةٍ جذورها في عمق التاريخ، ومن باب اللغة دخلت رحاب الشعر العرفانيّ والغوص في مضامينه الإنسانية وتالياً ترجمته...

لم يعد ممكناً في تكويني أن أرى الأمور إلا باللونين الأبيض والأسود، الصحّ والخطأ ولا ثالث بينهما، وخلق لي ذلك أزمة داخلية وأزمةً بنيويّة في التعامل مديرةً مع الواقع الذي يفرض شيئاً من الدبلوماسية والمساومة... أعترفُ الآن أنَّ ردود أفعالي كانت قاسيةً وتخلو من المرونة في مواجهة ما كان يطلب إليَّ أو مني من أولياء التلميذات وصولاً إلى المسؤولين، وأهل السياسة الذين يظنون أنك أحد العمال في دار الإمارة، كنت غيرَ مرنةٍ في التعامل مع أهل الحلّ والربط، أو مع العاملين المتهاونين، ولم أتمكّن من حبّ التلميذات الكسولات.

لقد تعرّضت شخصياً لمشاكل ولمواقف حين أستعيدها في ذهني أرى أنني كنت في المفهوم السائد أبالغ في ردود الأفعال، أكثر مما يتطلبه الموقف...

حمى المدرسة من الحروب التي كنت أشنّها بين الحين والآخر على من يطلب مني ما أراه مخالفاً لمبدأ العدالة، فريقُ العمل الذي تدين له المدرسة بنجاحها. الأساتذة المخلصون الذين تفانوا في التدريس والقذائفُ تنهمر في محيط الثانوية منذ تأسيسها وحتى عام التحرير المجيد، والنظار وبخاصّة النظار العامون أولهم الأخ الصديق الأستاذ محسن جواد منذ بداية التأسيس وحتى انتقاله مفتشاً تربوياً، ثم أختي وحبيبتي

السيدة ليلى صباح، اللذان يشهد الله أنهما كانا يُصلحان ما أُفسده، ويتحملان تأففي كلّما قدّمت كتاب استقالة من الإدارة ورُفض. أنا والثانوية ندين لهما، وأعتذر لكلّ منهما، عما ألقيته على عاتقيه من أعباء تفوق المهامّ المطلوبة إليه في النظام الداخلي، وفي السنوات السبع الأخيرة، ألقيت العبء برمّته على كاهل السيدة زينب عباس...

أعتذر من جميع الزملاء الذين كان لهم فضلٍ ودور إيجابي في مسيرة الثانوية، لا يتسع الوقت للكلام عليه الآن وذكرهم فرداً فرداً... يجب أن أخصّ بالذكر المرحوم الأستاذ إسماعيل إبراهيم الذي كان المرشد والمثال، وكان إلى جانب دوره معلّماً أميناً للصندوق يتولى والأستاذ محسن أمور الإنفاق وبعده الأستاذ علي جميل والآن الأستاذ حبيب زرقط... أعترف، أنني لم اكلّف نفسي في عهودهم أن أقرأ ما تنص عليه قوانين الإنفاق، ولم اتدخل في شؤونها من قريب أو من بعيد...

وهذا الأمر ينسحب على معظم الأعمال الباقية من باب الثقة وتفويض الصلاحيات.

يعرف أهل الثانوية المخضرمون أن معاناتنا قبل وجود الدولة على الرغم من القصف والظروف الامنية كانت أقل بكثير مما صارت عليه بعد وجودها كنا نستبق بدء العام الدراسي، نكثّف الدروس تحسُّبا للظروف الأمنية والعطل الطارئة, نجعل المتعاقدين الجدد الذين نختارهم بالغربال يبدأون التدريس قبل الموعد الذي تحدده الوزارة... صار هنالك دولة وأصبحت كتب التحذير والتهديد تنهال علينا: لا تبدأوا قبل الموعد الذي تحدده الوزارة وهو لا يكون عادةً إلا بعد أن تبدأ المدارس الخاصة الدراسة لأسبوعين إن لم يكن أكثر، لا تسمحوا للمتعاقدين بالدخول إلى الصفوف قبل أن نسمح نحن لكم ولا يسمحون هم إلا بعد انتهاء الوساطات أي ما لا يقل عن شهر من بدء الدراسة ولا يجرون التشكيلات إلا بعد شهر وربما شهرين.

استلمت الإدراة منذ ربع قرن والأحلام كبيرةٌ من أجل التغيير وديمقراطيّة التعليم وتلك الشعارات التي آمن بها جيلنا وحاول تطبيقها وها أنا بعد ربع قرن أقول صادقة أن لا نيّة لدى أحد في الحكم أن تطبق العدالة ويعطى تلاميذ لبنان الفرص المتساوية او المتشابهة في تلقي العلم وليتفوّق بعد ذلك من يتفوّق. لا الإستراتيجيات الجديدة ولاالدراسات التي كلّفت الأموال الباهظة أثمرت على الأرض تحسيناً في المستوى ولا الدورات التي خضع لها المديرون كانت مجدية .كان كل ذلك شبيهاً بالديمقراطية الكلامية في عالمنا العربي. فلا نيّة حقيقية لدى أهل الحكم, دون استثناء, في معالجة جذور المشاكل، فهم يفاقمونها عن قصد أو بغير قصد... الرجل الوحيد الذي مرّ في وزارة التربية ولم تناقض أفعالُه أقوالَه وكان هنالك تطابقٌ بين ظاهره وباطنه بمعياري

أنا معيار العدالة الذي اقيس به الناس من سيماهم وأفعالهم ,كان الوزير الدكتور خالد قبّاني.

أتمنى لهذه الثانوية كلّ الخير، لم يتغيّر شيء بذهابي منها فالسيدة زينب عباس تمارس الإدارة عمليًّا منذ أكثر من سبع سنوات، وكلّ العاملين في الثانوية عائلة واحدة، ومخلصون أيًّا كان موقعهم ونوع عملهم.

أكرر الشكر لجميع الذين آزروني في حياتي ودعمونِي أِشكر زوجي الذي دعمني طيلة مسيرتي، وأعتذر من أبنائي الذين تحمّلوا أن أشرِكَ الكتبَ في حبّهم وأنا أتتلمذ اليومَ على أيديهم.

أكرر الشكر للذين شاركوا في هذا الاحتفال إعداداً وحضوراً ورعايةً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته